تقديم

"العلـوم الاجتماعيـة" بوصفهـا علمًـا ومصطلحًـا هي مـن أكثر المواضيـع نقاشًـا في القرن المنصرم، ويـرى بعض الكتاب الغربيين أنها تأثرت كثيرًا بعلوم الطبيعة التي علا شـأنها سـريعًا في نهاية ذلك القرن، وفقدت أشـياءَ كثيـرةً من ماهيتها؛ فعَدُّوا نعتها باسـم "العلوم الاجتماعية" خطأً، بل أبانوا عن آرائهم تلك صراحةً فقالوا: إن العلوم الاجتماعية انسـلخت من الأفـكار والأيديولوجيـات، واتجهت إلى الظواهر؛ فالأولى عندهم إطلاق اسـم "العلوم المعنوية والسياسـية" على هذه العلوم التي تُعنَى بالظواهر.

ونـرى أنّـه لا يعنينـا مـا يـدور فـي الغرب مـن مناقشـات ونقد لمصطلـح "العلوم الاجتماعية"، والأهم هو تقويم ماهية تلك العلوم وجوهرها الذاتـي وآثارها العملية؛ فإن في العلوم الاجتماعية فروعًا كثيـرةً مـن العلـم مثـل: الديـن والتاريخ والقانـون والسياسـة وعلم الإنسـان "الأنثروبولوجـي" والاجتمـاع والنفس... إلـخ؛ ولكنها في رأي بعضهم أبعد ما تكون عن صفة "العلمية"، و"أحكام القِيمة" وعن "المبـادئ العظيمة" التي من شـأنها أن توسِّـع دائرة الأفق الإنسـاني لتبلـغ به الخاتمة الحسنى.

ولا يمكن القول بأنَّ بلادنا اليوم خالية من هذا الضرب من المناقشات؛ إنها لم تكن مناقشات فحسب، بل إن رجال الدولة شرعوا في تطبيقات قائمة على أحكام القيمة وعنوا بالعلوم الطبيعية وأغفلوا العلوم الاجتماعية؛ من ذلك أنّ مركز البحوث والتقنيات العلمية التركية "تُوبِيتَاكْ (*TÜBİTAK*)" اختار الفروع العلمية الطبيعية كلّها مثل الكيمياء والرياضيات والأحياء مجالًا للبحث والتخصص، وقصر عليها بحوثه التي أجراها، ومشاريعه التي افتتحها، ومسابقاته العلمية التي أعلن عنها، ومجلاته التي أصدرها، ومِنحه التي قدَّمَها، ودورات التقوية التي نظمها، ولما جاء من ينادي بافتتاح قسم للعلوم الاجتماعية في مركز "توبيتاك" عارضوه وحالوا دون افتتاحه؛ ولن نقف هنا عند العوامل الباعثة على هذا التوجُّه؛ فلعلّ أقسام العلوم الاجتماعية في جامعات اليوم قد عجزت عن تقديم ما كان مأمولًا منها، ولم تَجرِ بها أبحاثٌ ولا رسائل علميةٌ جادّة بقدر ما أُجريت في ساحة العلوم الطبيعية، أي إنهم لم يقدروا على إثبات أنفسهم بأي شكلٍ مقارنةً بغيرهم؛ وإذا ما نُظر إلى الأمر من هذه الزاوية فقد يكون رجال الدولة مُحِقّين في موقفهم من هذه العلوم.

وثمة حقيقة لا قِبلَ لأحد بأن يغض الطرف عنها ألبتة، وهي أن العلوم الاجتماعية في العالم أجمع سجلت تقدُّمًا كبيرًا في معظم المجالات، وأصبحت تحظى في أيامنا هذه باهتمام كبير في العالم كلّه تقريبًا كما كانت العلوم الطبيعية إبّان الثورة الصناعية؛ فقد خصصت الحكومات اعتمادات مالية ضخمة من ميزانياتها لدعم

مشاريع في هذا الصدد، وأنشأت المعاهد البحثية، وجمعت العلماءَ الذين نذروا حياتهم لهذه الغاية عبر عدة مؤتمرات سنوية كبرى دَورِيَّة واستثنائية، فأتاحت لهم الفرصة لتبادل الأفكار والآراء في هذه الساحة.

وفي هذه المرحلة ثمة أشياء كثيرة يجب الاضطلاع بها، فعلى مؤسسات الدولة المسؤولة أن تقوم بإنشاء عدة منظمات لإعداد وتأهيل من يقدرون على إنتاج نظريات كبرى، وصياغة مفهوم اجتماعي عادل ينبثق عن خططهم ومشاريعهم وأبحاثهم، وإن لم يتحقق هذا عمليًّا فنظريًّا على الأقل، ويكشفون بطريقة علمية عن حقيقة تثبت أن العلوم الاجتماعية والطبيعية تكمل إحداهما الأخرى، وينبغي أن تُقدَّم كلُّ أنواع الدعم الماديّ والمعنوي لتلك الخطط والمشاريع، فإن عجزنا عن إنتاج مشاريع مستقبلية فلن نستطيع أن نخلع عباءة العالم الغربي؛ ومعلوم أن انقيادنا للعالم الغربي في مجالات عدّة بلغ أعلى مستوياته فعلًا، وإذا ما أضيفت إلى هذا خطط الغرب المستقبلية وأتيحت الفرصة لتطبيقها، فلربما وقع العالم الإسلامي في أسْرٍ جديدٍ يتعذر معه أن ترتفع له هامة مرةً أخرى.

وكتاب "المَوْشور" هذا لأستاذنا محمد فتح الله كولن أجوبة مرتجلة على أسئلة جاءته في أوقات مختلفة ولذا يمكننا أن نعدّه توليفة من مثل هذا الفكر البديل.

ويتكـون هـذا الكتـاب مـن خمسـة أقسـام: "المنظـور" و"البُعد الفكري" و"حول محور الدين" و"المِجْهر" و"النوازل".

المنظور: هو قسـم يحفل برسـائل ذات مغزًى عميق موجهة إلى أربـاب المسـتوى الذيـن يحاكون الصحابـة الكرام ﷺ فـي رغبتهم بكشـف الطريق أمام البشـر جميعًا؛ لينعموا بالراحة والسعادة والجنة والجمـال الإلهـيّ؛ ويوجه القلـوب إلى الله ﷻ والأنظار إلى رسـوله ﷺ وإلى الوسـائل التي تسـهم في خدمة هذا الدين، ويتناول مسـألة الحركـة والعمـل أهـم المقومات الأساسـية للدعـوة، ويقـدِّم أحيانًا المعاييرَ المناسبة للاقتراب من الناس لا سيما ذوي السلوك العدائي، ويكثر فيه الحديث عن موازين الخدمة الإنسانية، ويحذّر أيما تحذير من الانزلاق في فجوات عقلية ومنطقية؛ وهاكم فقرات من ذلك:

> "سـلوك المؤمن مهمٌ جدًّا؛ فهو إنسـان تأدّبَ على مائدة الأدب النبـويّ، فـلا يمكـن أو لا يُتوقَّع ألبتـة أن يخرج عن دائـرة الأدب واللطـف والنزاهـة، فـكلُّ سـلوك يصـدر عنه سـيُعزى تلقائيًّا إلى الإسـلام، فعليه أن يحافظ على سـلوكه الذي صاغته التربية الإسـلامية على نحو يليق بالمسـلم دون تغييـر قِيـدَ أنملـة حتـى وإن كان فـي مواجهة أكفـر القلوب وأقسـى الحـوادث، ولـو تأمّلنا حيـاة سـيدنا ﷺ للاحظنا أنه لم يغيّر معاملته حتى مـع أبي جهل؛ وعلى ذلك فإن أغضَبَنا شيء ما فليكن أسلوبنا إسلاميًّا".
>
> "كلَّمـا حقّقنـا نجاحًـا واضطلعنـا بمهـامّ أكثـر ينبغي أن تـزداد عباداتنا وتواضعنا بقدر ما حققناه؛ لئلا ننسـحق تحت

أنفسنا فنهلك، كان الإمام الرباني السرهندي يرى نفسه دونَ الكلب. نعم، لا بد أن يترسخ هذا المعنى في أرواحنا ليكون لسانَ حالنا على الدوام، كان رسولنا ﷺ يدعو في سجوده صباح مساء منيبًا لربه: "**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"(١)، ولطالما كان يضرع خاشعًا بهذا الدعاء، فلنكرره، ولا يركنَنَّ امرؤ إلى نفسه ولو لحظة.

علينا أن نرى أنفسنا مصدر كلِّ عيب، وأنها العائق دون أداء الخدمة؛ وأن أي نجاح إنما هو فضل إلهي، فلننسب ذلك إليه ﷻ لا إلى أنفسنا. أجل، إن قولك: "عملتُ، وفعلتُ، ونفّذتُ، وأنجزتُ" منطق فرعوني، فهذا قارون قد ظنّ أن ما لديه من نِعَم إنما كان بعلمه هو: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٧٨/٢٨)، وكذا كلّ الفراعنة قالوا مثلما قال؛ أما الرسل جميعهم ورسولنا ﷺ فتمثّلوا قوله تعالى: ﴿**قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٨٨/٧).

لاحظوا ما يقوله رسولنا ﷺ: "**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**"(٢)، ولو أنَّ مليون إنسان اهتدوا على أيديكم، وبواسطتكم أنتم، فإن ظننتم أن هذا من عند أنفسكم، فربما تغدو هدايتكم لهم سببًا في دخولكم جهنم لا الجنة؛ إن البيان القرآني واضح

(١) مسند البزار، ٤٩/١٣؛ النسائي: السنن الكبرى، ٢١٢/٩؛ الطبراني: المعجم الصغير، ٢٧٠/١؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٧٣٠/١.

(٢) صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبيّ، ٩؛ صحيح مسلم، الفضائل، ٣٤.

في هذا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)، فما لنا من الخير إن كان الأمر كذلك؟ ليس لنا سوى عجزنا وفقرنا. أجل، إن طريقنا إلى قدرته هو عجزنا، وإلى غناه فقرُنا، فإن زاد شكرُنا له وواصلنا العمل في سبيله بشوق استمرت مظاهرُ الإحسان هذه ودامت"..

البعد الفكري: في هذا القسم مواضيع كثيرة بدءًا من حياتنا الثقافية إلى مفهوم "الدين من أجل الدولة، والدولة من أجل الدين"، ومن الآليات النفسية والوجدانية إلى الأنظمة القائمة، وفيه الحركات الرجعية المتقمصةُ لباسَ الإسلام، والاتجاهات المطالبة بتوحيد الأديان، أضف إلى ذلك التعرف على وجهة نظر المؤلف في المشكلات اليومية ومظاهر خلفياتها.

حول محور الدين: هذا القسم يُضفي وضوحًا على مواضيع مختلفة عانى كثيرون زمنًا طويلًا في فهمها وإدراكها لملابستها لتفاسير ورؤى متباينة تشوّش الأذهان؛ من ذلك قضيةُ الرؤيا. نعم، معروف أنها ليست من طرق المعرفة إلّا أن منزلة العمل بالرؤيا في الدين أو التوفيق بين الرؤيا والحقيقة من المواضيع المطروحة للنقاش اليوم؛ ففي هذا القسم ضوابط خاصة لهذه القضية؛ وفيه مواضيع أخرى مثل المعصية والتوبة والشيطان... إلخ، ورب قائلٍ للوهلة الأولى: إنها موضوعات تقليدية! لكنه إذا ما تأمّل جِدَّة أجوبتها لعله يقول: "كأنها أول مرة تُطرَح فيها حلول لهذه المسألة".

المِجْهر: معلوم أن المجهر عدسة تُظهر الأجسام أكبر مما هي عليه؛ ففي هذا القسم أمور تكلم عنها أستاذنا شفهيًّا أو كتابةً سابقًا، وأسئلة أُعيد طرحها عليه مع أجوبة مفصلة عنها، ومن أمثلة ذلك: "ترون ثمة ثلاثة عناصر مهمة تُحيي الأمم: الدين والحكمة والقوة؛ فليتكم تبيّنون لنا هذا؟" و"ما معنى "مجتمع المعرفة" في هذه المقولة: "إن احتضان المستقبل لا يكون إلا من مجتمع المعرفة"؟".

النوازل: في هذا القسم أجوبة عن الحوادث المستجدّة، ففيه رسائل للقانطين الذين شعروا أنهم عاجزون عن فعل أيّ شيء يشفي الصدور إزاء حرب البوسنة والهرسك، ويئنون ألَمًا وضجرًا تحت وطأة هذا الشعور، وفيه تقييم من زوايا واسعة للحرب الأمريكية اليابانية المحتملة التي رسمت لها عدة سيناريوهات، والجنايات التي ارتكبتها بؤر الشر، والألاعيب التي تحاك حول أمتنا.

المَوْشور؛ اسم يطلق على الأجسام المصنوعة من مادة شفافة تعكس الأشعة حولها وتحللها، وإذا ما انطلقنا من هذا التعريف بدا لنا واضحًا جدًّا أن هناك علاقةً وصلةً وطيدةً بين محتوى الكتاب واسمه؛ فالمَوْشور كتاب اُختزلت فيه وفقًا لمعيار عقول المخاطبين المعارفُ الوهبية أو الكسبية الشبيهة بأطياف الضوء؛ فصُنفت وروعي فيها عنصر الزمان والمكان والإنسان؛ فهو بهذا يقوم بوظيفة العكس والتحليل، مثله مثل المَوْشور الحقيقيّ، غير أنه لا ينبغي أن ننسى أنَّ "فيوضات كلّ إنسان تأتي على حسب استعداده".

نعم، كما بيّنا في البداية ثمة كثير من المواضيع في علوم مختلفة يتم تسليط الضوء عليها، مثل: الدين والتاريخ والاجتماع وعلم النفس والسياسية وغيرها، وتُوضَّح طبعًا بقدر ما تتيحه طريقة السؤال والجواب في كتاب المَوْشور هذا الذي يقدّمُ وجهة نظر جديدة ولو إجمالًا.

وقد جمعت هذه المقالاتُ من أحاديث أستاذنا محمد فتح الله كولن، وفُرِّغت في كتاب، وجاء تقسيم هذا الكتاب كما عرضته سابقًا في إطار توجيهاته وتعديلاته هو أيضًا، فالكتاب الذي بين أيديكم هو أول كتاب في هذه السلسلة، ويليه كتاب ثانٍ وثالث إن شاء الله...

والآن إذ أترك القارئ مع الكتاب؛ نسأل المولى أن يبارك في عمر أستاذنا وأن يمتعه بتمام الصحة والعافية والسلامة، وأن ينير عالمنا الروحي والفكري بكتب كهذه، وأن يغمرنا سبحانه بعنايته.

٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥م

أحمد قُورُوجَانْ